النقد والتعقيب

في الصحف والمجلات

معظم ما يطالعنا من نقدات أو تعقيبات في صحفنا ومجلاتنا ، لا أثر للدراسة فيه ، ولا جدوى للفكر من ورائه ، هي أشبه ما تكون بتوقيعات المجاملة ، أو الوخزات المؤذية ، أو النفثات الكريهة المنفرة . ونادر أن نجد منها الذكي البارع ، أو الخلاق النافع

وهذه مأساة تثير الأسى ، وتدعو الى الاهتمام اهتماماً كبيراً بهذه الناحية ، وتوجيه أصحاب الصحف والمجلات الى احسان اختيار الكتّاب والنقاد ، خدمةً للفكر ، ومعاونةً للتأليف .

وعلى عكس حالنا هذا نكاد نلمس الاهتمام بالنقد في كثير من المجلات والصحف الأوربية ، حيث نجد نقدات وتعليقات مركزة حصيفة مدبجة بأقلام ضليعة ، تشرح للقارىء النقاط الهامة في التأليف ، بل تسجل بعض فقرات منها ، وتشوّقه الى اقتنائها ، وهذه هي الخدمة الحقة التي يؤديها كتّاب المجلات المعاصرون للتأليف والمؤلفين

وكان هذا ديدن كبار الكتّاب في أجيال غير بعيدة ، فقد كان الكاتب الانجليزي الخبير « ماكري » يدرك مسؤوليته الأدبية قبل أن يخط حرفاً ، كان ينبث بذهنه في أعماق الكتاب ، ويتفهم روح كاتبه ، ثم يأخذ في الكتابة عنه ، وكان يَعُدّ الحكم على كتاب دون قراءة رياضة متمقة ، ضرباً من الوقاحة المتخطرسة .

وكذلك كان الناقد العظيم ، سانت بيف ، يخصص الساعات الطويلة لكتابة مقاله الذي كان يظهر يوم الاثنين من كل أسبوع ، ويتناول فيه كتاباً واحداً ، وقد تعوّد هذا الناقد الفرنسي المثالي أن يخصص خمسة أيام لكتابة المقال ، ويوماً لمراجعته ، وقد كانت لكتاباته خطرها ونفوذها ، وكان هو ذاته قوة يُحسب لها كل حساب .

ونحن ، لا نؤمل ، في الوقت الحاضر ، الوصول الى مستوى مثل هذين الرجلين ، ولكننا ، نتطلع الى تعرف المسؤولية الفكرية الخطيرة التي تقع على عاتق الكاتب في مصر أو في غير مصر من البلاد الشرقية الأخرى ، وما تتطلبه هذه المسؤولية من أمانة قضية ، وضمير أدبي نزيه في الحكم على نتاجات الأقلام أو على قيم الرجال .

وتقتضي هذه الأمانة وذاك الضمير ، فهم التأليف واستيعابه ، والتجاوب مع كاتبه ، ثم أعطاء صورة صحيحة للقارىء عنه ، والناقد أو المعقب ، بعد هذا كل الحرية في نقده كا يشاء في أسلوب عفّ ، مجرد عن اللمز أو الوخز .

فليس ريب ، أن التعقيب القائم على القراءة الطائرة ، إخلال بالأمانة العلمية ، والتعقيب المقرني اللاذع تخلٍّ عن الصفة العلمية ، والتعقيب الجزئي المغرض قتل للحقيقة ، وأسوأ التعقيبات وأشدها إنما هو التعقيب الغيابي التحكمي الذي يدبجه الكاتب دون قراءة العمل الأدبي .

وطرز هذه التعقيبات تفيض بها مجلاتنا وصحفنا . وقد كان بودنا أن نورد أمثلة لها ، ولكن المقال يطول ، ولهذا نقتصر على مثال واحد لهذه التعقيبات العابثة ، التي أذهلت كثيراً من المثقفين في مصر . هي كلمة عرجاء كتبها أحد شباب المتخرجين منها منذ عامين أو أكثر ، يحمل فيها على الأستاذ سلامه موسى وينال من أدبه وعلمه في عنف وضراوة !

لقد قرأنا هذه الكلمة ، فعجبنا من هذه الجرأة بل من هذا الاندفاع الجنوني ، في محاولة انتقاص رجل خدم الفكر والثقافة قرابة أربعين عاماً وأخرج في غضونها أكثر من ثلاثين كتاباً وبينه وبين هذا الشاب برزخ واسع من الثقافة والتجربة والعمر .

وكان عجبنا أعظم من صاحب المجلة الذي يسمح بمثل هذه الاندفاعات ، وهو الأديب الجهير الذي يعرف تماماً ، آثار الأستاذ سلامة على الفكر المصري ، وان خالفه في المزاج الأدبي والاتجاه الثقافي .

وإزاء هذا العدوان لم يجد الكاتب الشاب النابه ، الأستاذ وديع فلسطين بداً من انصاف الكاتب المفكر الجريء ، فدبج مقالاً بمقتطف أبريل ١٩٤٩ عنوانه « سلامه موسى دعامة قوية من دعائم الفكر العربي » وكان مقالاً هادئاً نقياً متزناً ، مركزاً ، ضمنه مميزات الرجل الفكرية والانسانية ، وعدد فيه تآليفه وأبان فضله على الفكر العربي في مدى خمسة وأربعين عاماً » . وقد قوبل هذا المقال من الخاصة بأجلى مظاهر الثناء والتقدير وقوبل ، مع الأسف ، من الشاب المعتدي بالاستخفاف ، والثورة العارمة على كاتبه فوصف المقال ، بأنه مقال مضحك ! وشبه كاتبه بالنملة التي اذا سئلت عن الدبابة : قالت إنها فيل كبير ! وهكذا يكون أدب التعقيب ، وجنوح المعقبين .

ولكنا مع هذا لا زلنا نطمع في أن يراجع المعقب موقفه ، كما راجعه قبلاً من شوقي وعلي طه والحكيم ، ونكتفي بأن نقدم له أسماء بعض الكتب ليقرأها ليروىء في حكمه ويصحح موقفه — نذكر منها : نظرية التطور وأصل الانسان — في الحياة

والأدب — التجديد في الأدب الانجليزي الحديث — الشخصية الناجحة — التثقيف الذاتي — كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين — فن الحياة — حرية الفكر وأبطالها — أشهر الخطب، حرية العقل في مصر — ثم نردف هذه القاعة بفقرة رائعة جاءت في كتابه «تربية سلامة موسى» لعلها تعطي معقبنا الشاب المندفع صورة من الرجل الذي تجنى عليه في تسرع

«ذات مساء في ١٢ يوليو من عام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت في غرفة مظلمة في سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والقتل، وكانت تهمتي أني أكتب وأفكر .. وأخذت ذاكرتي تعرض فلم حياتي الماضية، فذكرت الحرية التي كنت أتمتع بها في عام ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات في «المستقبل» وذكرت العناء الذي لقيته في الدراسة والتأليف، وهددت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطني أخلصت فيها النية، وبذلت المجهود كي أنير وأعلم، وكي أسمو بالشباب الى مثليات القرن العشرين، وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية، ثم تأملت حالي على الأسفلت الخشن، وكيف أني لم أجمع مالاً ولم أحصل حتى على الكرامة التي يستحقها من يخدم ويخلص في الخدمة .. وأخذت أفكر وأجتر التفكير وعقلي يتصور من الألم، إلى أن أصبح الصباح .....»

هذه صفحة جليلة نورانية مؤثرة من حياة الرجل الذي يتهجم عليه أحد المعقبين الشبان، وهي تلقي ضوءاً على رهبانية الرجل الفكرية، وزهده عن المادة، وتفانيه في توجيه الشباب الى الحضارة العصرية، ومجاهدته التقاليد البالية، والقيود الظالمة للفكر الحر، وان شئت آية أخرى من تمثلات هذا الذهن الناضج فاستمع إليه في ص ٣٧ من كتاب التربية سالف الذكر يقول فيها:

«لست أبالي أن أكون ثريًّا، لا بل لست أبالي أيضاً أن تكون لي زوجة وأطفال، وانما قصدي، أن أفهم، أن أعرف كل شيء وآكل المعرفة أكلاً!

ثم عدت فقلت ولكن لماذا؟ وأجبت لأكافح — أكافح هذا الشرق المتعفن الذي تنغل فيه ديدان التقاليد، وأكافح هذا الهوان الذي يعيش فيه أبناء وطني. هوان الجهل وهوان الفقر، أجل اني عدوّ للانجليز، وعدوّ لألاف من أبناء وطني، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية، وحرية المرأة، ويؤمنون بالغيبيات».

هذه هي رسالة الرجل في كلمات، وتتلخص في الدعوة الى ينابيع المعرفة، ومكافحة الجهل والفقر، والوقوف في وجه السلفيين الذين يعارضون الحضارة العصرية، وحرية المرأة ويخلدون الى الخرافات الغيبية، وما أنبلها رسالة، وما أجدر صاحبها بكل تقدير واجلال.

مصطفى عبد اللطيف السحرتي